حينما نقلد . . .

للأستاذ فايد العمروسى

لا يعنينى عند الكلام فى التقليد أن أبحث عن أسبابه ومظاهره النفسية كما يصنع علماء النفس . إنما يعنينى منه الجانب الاجتماعى والعملى الواقع فى الحياة المصرية .

وأكثر ما يبدو هذا التقليد فى الأسر الراقية والمتوسطة ، أما الأسر الفقيرة العاملة فليس لها نصيب فى هذا المجال لأن لها من مشاغلها ومتاعبها ما يقف مجهودها للعيش وتوفير أسبابه ، وليس لها من فسحة النفس أو المادة ما يلفت نظارها الى ما يختلف حولها من مظاهر العيش وأساليبه المتجددة كلما دار الزمن وتغيرت مظاهر الحياة .

إنما يشعر بتطور الزمن أولئك الذين تؤثر الكماليات فى نفوسهم وليس للضرورات أثر فى حياتهم والذين يعنيهم من مظاهر العيش ألوانها وأشكالها فحسب ، هؤلاء هم الذين حملوا لواء التقليد وتزعموا حركته و بالغوا فيه وأمعنوا ، ولا أزعم أن تقليدهم كان سيئا فى جميع أحواله وأوضاعه ، بل ان فيه النافع الذى أفاد فى ترقية المنزل ، ومنه ما أضر كل الضرر بالنفوس والأخلاق .

والتقليد عندنا كما قلت محصور فى الطبقات المتوسطة والراقية ، فالطبقات المتوسطة المصرية تقلد الطبقات الراقية المصرية ، تقلدها فى مسكنها وملبسها ومشربها . تقلدها فى جل مظاهرها رغبة فى اللحاق بها والاستقرار فى مستواها ، وهى بحكم قوتها المادية لا تستطيع أن تجارى من هم أقوى منها اجتماعا ومالا ، ومن هم أكثر منها قبولا للأوضاع المقلدة واستعدادا ، ولقد نشأ عن هذا الصراع الاجتماعى أن اضطربت الأسر المتوسطة بين المحاولة والعجز ، و بين التطلع والنكوص فكان الفشل والسقوط .

وهنا وفى محيط تلك الأسر وحدها يكمن الخطر من التقليد الأعمى ، فالشاب المتوسط الحال يقلد مدفوعا شابا آخر أقوى منه اجتماعا ومالا ، يقلده حينا من الزمن الى أن تعجز مقدرته ، ويضعف استعداده الوقتى فيتلمس السبل الأخرى — وما أكثرها — كى لا ينقطع تيار محاكاته الشهى ، وما درى ما جرت عليه هذه السبل من الفجائع والأخطار فى شخصه وفى طبقته ، و بالتالى فى المجتمع العام الذى يعيش فيه .

والفتاة المتوسطة الحال كذلك ، إنه ليصعب عليها ألا تكون " بنت ذوات " و" بنت ذوات " هذه كلمة لها مدلولها ، ومدلولها له ثمن أى ثمن ، وأقل ثمن له الغنى والجاه ؛ والغنى والجاه لن يتوافرا لمتوسطة الحال المشغوفة بالتقليد العنيف والمحاكاة المجردة من كل فهم أو تقدير ، وما أظننى فى حاجة الى بيان خطر التقليد على مثل هذه الفتاة أكثر من حاجتى الى القول بأنها كثيرا ما تضطر الى أشياء تؤذى الأسرة والمجتمع .

وهناك تقليد الطبقات المصرية الراقية بعضها لبعض ، وهذا نوع من التنافس الاجتماعي المحدود ، وهذا التقليد لن يضير المجتمع بطريقة مباشرة أكثر مما يضير الأسر المتنافسة نفسها في مركزها المالي .

وهذه الطبقات كلها دون استثناء تقلد الطبقات الأوربية راقية كانت أم غير راقية ، ولست أدرى سر هذا الاعجاب ، فطبقاتنا الراقية — والحمد لله — على نصيب وافر من الثقافات الفكرية والتهذيب النفسي ، ثم هي على جانب آخر من الغنى والجاه ، واذا اجتمعت هذه العوامل — الثقافة والتهذيب والغنى كان من مقتضياتها الاعتزاز والأنفة والثقة بالنفس مما كان يجب أن يحول بينها وبين اتباع الغير أو التلاشي تحت تأثيره .

ومن مظاهر تقليد هذه الأسر : المعيشة المنزلية :

فمظاهر هذه الحياة المنزلية لدى هذه الأسر ليس للصبغة المصرية أثر فيها ، فنظام الأثاث والترتيب والزينات والتحف كله أوربي ، ومظاهر الاجتماع من مقابلات وتحية وحديث ونقاش وتوديع — كلها خالية من الطابع الشرقي ونحن قدوة الشرق ومحط آماله ، ولن تستطيع اذا دخلت قصرا مصريا أن تحس مصريته ، أو تشعر بقرابة بينك وبين أهله ، اللهم الا اذا كنت ممن يجيدون التقليد الناعم الرقيق ، والا فأنت من عنصر غير عنصرهم أو أنت بالتعبير المتعارف عندهم " فلاح " ؟

ومن مظاهر هذا التقليد : لغة الحديث :

فالكلمات العربية على ألسن هذه الطبقات مرة . . . ثقيلة ، والجمل الصحيحة المستقيمة على أسماعهم سخافة وعدم ذوق ، فحديثهم في الغالب لغة أجنبية لأنها في ظنهم تحيط بشتى الموضوعات التي تعنيهم من الحديث في الأزياء والأصباغ وأحدث الابتكارات الأوربية ؛ وهي التي تغذى شعورهم في مختلف الأحاديث عن الحفلات والسهرات وعن عواطف النفس وخوالج الشعور ، والتي يجدون لها في اللغة الفرنسية مثلا أرق الاصطلاحات في النطق ، وعذبها على السمع ، وأخذها على النفس .

هذا ولاشك تقليد ، وتقليد للغير الذي يعتز بلغته ويكبرها فيرغمنا نحن على اتباعه ومشاركته في هذا الإكبار !!

واستخدام لغة أمة أخرى غير لغتنا غير ممنوع في مناسباته الضرورية ، وإنما الممنوع أن يكون استخدامها دائما وقائما على أشلاء لغتنا العربية التي هي مظهر كياننا القومي العزيز .

وقد تكون ثقافة هذه الأسر أو بعضها ثقافة أوربية حقة ، ولكن هذا لا يمنع أهلها من معرفة لغتهم والحديث بها في اجتماعاتهم المنزلية وغير المنزلية ، ولا سيما أن في هذه الأسر أطفالا بنين وبنات هم في حاجة في مراحل الطفولة إلى حديث عربي مستقيم يتفهمون به ما يحيطهم من مظاهر الحياة وصورها ، والمنزل كما نعرف هو المدرسة الأولى لتربية الأطفال.

على أن هذا قد يكون " مباحا " إلى حد ما فى بعض الأسر الراقية التى تعمد فى تربية أولادها إلى تربية خاصة يتطلبها نوع حياتهم وضرورة مستقبلهم .

أما الذى لايطاق تحمله ولا يغتفر فهو ما يعمد إليه بعض الأسر المصرية التى لاهى بالراقية ولا بالمتوسطة إلى الحديث المنزلى وغير المنزلى بلغات اجنبية وهم عن ثقافتها أو إجادتها بعيدون، ومما يؤسف له أن هذا النوع فى البلد كثير وكثير، هذه الأسر وأمثالها وباء خطير على المجتمع . . . إنهم يتحدثون بلغة غير لغتهم عامدين ، ويلهجون بغير لهجاتهم ساخرين ، وماهم فى هذا وذاك إلا كالتراجمة المأجورين . . . فلا ثقافة ولا تهذيب .

ومن مظاهر تقليد هذه الأسر : الملابس والأصباغ والرقص :

تلبس الفتاة الأوربية الملابس القصيرة بأنواعها المختلفة ، وتلبس الفتاة المصرية كذلك تبعا لها وتمشيا مع روح التطور وهذا — ولا شك — لاغبار عليه .

إلا أن هذا الزى للأوربية وسيلة لغاية جيدة فهمتها واقتنعت بها فعملت لها ، تلك الغاية هى التخفف من تعقيد الملابس والجوء إلى البساطة والسهولة والحصول على الجمال، وقد تحقق للفتاة الأوربية — فعلا — هذه الغايات، فسهلت من حركاتها، واقتصدت من وقتها.

أو كذلك الفتاة المصرية فيما تقلد ؟ ؟

أظن — غير مبالغ فيما أظن — أن معظم فتياتنا لايفهمن الغاية من هذا التقليد سوى أنه تطور أوربى محبوب ، لذلك بالغن فى هذا التقليد وأسرفن فيه فخرجن عن حدوده وأساءن استعماله ، وما ذلك إلا لأنهن يقلدن فحسب دون فهم أو استعداد نفسى لقبول هذا التطور ، ولكيلا يقال : إنهن متأخرات !

والأصباغ : طريقة صنع الأصباغ عند المرأة فن جميل له حدود وقواعد ، وله زمان ومناسبات والمرأة الأوربية تعرف كيف تنسق هذه الأصباغ على بشرة وجهها ، وتعرف متى تضعها ومتى لاتضعها ، وتدرك الغاية التى ترمى إليها فتحققها ، وأول هدف ترمى إليه فى تلك الغاية قلب زوجها . . !

والمرأة الشرقية قلدتها فى ذلك دون نزاع ، ولكنها تخلفت عنها كثيرا ، فبعضهن لايحسن وضع الأصباغ ولا يجدن تنسيقها ، فهى تشوه بها وجهها حيث تريد تجميله ، وهى تجهل مناسباتها وتغفل عن وقتها وتضل غايتها فتحقق .

فهذا تقليد أيضا غايته غير مفهومة ولا واضحة فى نفوس المقلدات ، ولو وضحت هذه الغاية فى نفوسهن لتحسنت السبل فى الوصول إليها .

والرقص : هذا تقليد عندنا ما كان أغنانا عنه . . !

فالمرأة الأوربية ترقص للرياضة والفرح ، فالرقص لديها كلعبة " التنس " أو السباحة أو القفز على ظهر جواد .

وطبيعتها الأولى فى التربية الاجتماعية وفى الوراثة تجعل مثل هــذا الرقص عندها أمرا عاديا لاشذوذ فيه ، وذلك لأنها لم تمنع من الاختلاط طفلة وتلميذة فى المدرسة والجامعة وشابة فى المجتمع أو محل عملها ، فهى إذ تقبل على من يراقصها تقبل على مخلوق ألفته ورأته وحدثته وتفاهمت وإياه وتساوت به فى جميع مراحل حياتها ، فهو ليس غريبا عنها ، كما أنها ليست غريبة عنه ، فكلاهما للآخر زميل ، وزميل مألوف .

وتقلدها الفتاة المصرية فترقص ، وهنا تكفى الإشارة إلى حالة فتاة أطلقت من سجنها حديثا ، أو حطمت أغلالها فخرجت أول ماخرجت جائعة ظامئة لتلتق بجنسها الآخر الممنوع عنها . . والمحجبة عنه . . !

فهذا تقليد أظن أننا لن نستسيغه لأن ظروفنا وطريقة تربيتنا وعلاقاتنا الاجتماعية لاتهيئ لنا له .

ونحن لاننتهى عند التقليد الاجتماعى ، فنحن نقلد فى التعليم وفى الآداب والفنون .

وأعنى بالتقليد فى التعليم ماننرسمه من خطط غيرنا فى مناهج التعليم وطرق دراستها ، ولقد كانت المناهج فى مدارس أوربا هدفنا الذى وجهنا إليه أنظارنا ، ومنها وضعنا النظم ، وعلى أساسها حددنا المناهج ونفذها المدرسون فى المدارس .

وبعض هذه المناهج أخذت أول ما أخذت على علاتها ، ونفذت هكذا بمـا فيها من عقبات اعترضت المعلمين فى طرائقهم واعترضت التلاميذ فى إدراكهم ومستقبلهم ، وماهى إلا صورة معدلة تعديلا طفيفا من المناهج فى أوربا .

إن اقتباس المناهج من مدارس الأمم الناهضة أمر لاغبار عليه على أن يؤخذ منها أحسنها ويترك ماسواه ، وعلى أن يراعى فى ذلك غاية التعليم فى البلدين وطبيعة العمران فيها ، فليس مايصلح من مناهج التعليم فى إقليم يصلح فى الآخر ، وليس استعداد التلاميذ فى بلد من حيث فطرتهم وذكائهم وميولهم مماثلا لغيره فى قطر غريب .

ولدينا تقليد فى الأدب والفنون يتطلب بحثا كبيرا لا أستطيعه فى هذا المقال .

من هذا العرض السريع تظهر بعض وجوه التقليد عندنا ، ويظهر ما نحن فيه فاشلون ، وما نحن فيه بين بين ، وما نحن فيه مصيبون .

ولكننا فى التقليد الاجتماعى لازلنا نتخبط ، وما ذاك إلا لأننا قوم نقبــل على التقليد إقبالا سريعا دون تأمل أو أناة ، فكل جديد يبهرنا وكل بريق يخطف أبصارنا ، وهذا عيبنا ؟

انمـا نستفيد من التقليد الاجتماعى خاصــة إذا سرنا فيــه بخطوات متئدة حتى تنضج معانيه فى نفوسنا ، وتتضح غايته فى عقولنا ، ومن نتائج التأنى فى التقليد أن يترك للنفوس فرصة من الزمن ترسب فيها المعلومات ، ويتسرب إليها الفهم رويدا رويدا فيتكون الاستعداد لقبول كل شيء جديد .

وهنا يكون للتقليد أثر محمود إذا كان ما تقلده من الصفات فى غيرنا أمرا طيبا ليس فيه مساس بقوميتنا أو كرامتنا ، وليس فيه خدش لأصول التربية السليمة والأخلاق .

أما التقليد الأعمى فهو المعول الهادم لكيان الأمة ، إنه يمحو الشخصية أو يرخصها ، وهو التيار الجارف فى محيط من الغواية والجهل لا شواطئ له ولا قرار .

أمامنا مثل عالية من الأمم التى نقلدها ، هذه المثل عملية محضة ، لها مساس بصميم الحياة القيمة .

أمامنا تقليدهم فى نظام المنزل ونظافته ، فى تنسيقه وتهذيبه وتزيينه بالأزهار ، فى ترتيب أثاثه وتجميل تحفه ، فى إشعاع الفرح فى جوانبه ، وبث النور والاشراق فى نواحيه ، فى جعله جنة تطمئن إليها النفس وتسكن فلا تمله ، فى جعله واحة وريفة يتضاءل أمامها كل مظاهر خارجى من مظاهر المقاهى والمنتديات التى يهرب اليها من فقدوا فى منازلهم لذة الفرح ونشوة السرور .

أمامنا تقليدهم فى تربية الأطفال ، فى نظافتهم وتنظيم طعامهم وأوقات نومهم ، فى فصل أوقات لعبهم عن أوقات عملهم ، فى القسوة عليهم حيث تجب القسوة والحنان حيث يجب الحنان ، فى الوقوف على حركاتهم وسكناتهم ، فى تلقينهم مبادئ التربية النافعة ، فى الأحاديث والقصص ، فى رعايتهم والاهتمام بهم .

أمامنا تقليدهم فى المعاملة بين الزوج وزوجه ، فى كيف تحبب الزوجة اليها زوجها فى الشعور بواجبه عليها ، وكيف تحترمه وتعينه وتؤيده وتخلص له .

وفى كيف يعنى الرجل بزوجته فيرعاها ويحترمها ويحتفظ بحقها و يعترف بكيانها و يثبت وجودها بالمشاركة والمشورة .

أمامنا تقليدهم فى الاعتماد على النفس ، والاقدام على العمل ، واستساغة الشدة ، والاستهانة بالصعاب والأسفار والاغتراب .

أمامنا تقليدهم فى احترام الواجب والتعفف عن الاستطلاع والإيجاز فى الكلام والاستقلال الشخصى .

أمامنا تقليدهم فى الاحتفاء بالأعياد والمواسم ، واستقبال السرور والاهتمام به ، والعناية بالفرح واظهار علائمه ، وتوطيد الروابط بين أفراد الأسرة بما يكون بينهم من مجاملات فى المناسبات والأعياد .

أمامنا تقليدهم فى نظمهم الاقتصادية والتجارية ، فهم يعرفون كيف يستثمرون أموالهم و يروجون بضائعهم بأساليبهم الحديثة المغرية ، وطرقهم الجديدة الأنيقة ، فهذا كله تقليد عملى ، والتقليد العملى مجد لكل أمة ناهضة .

فايد العمروسى